عمان البلقاء في نهاية الفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية، في ضوء أعمال التنقيب لموقع أم زويتينة

باسم المحاميد و هنادي الطاهر

توطئة

يتناول هذا البحث دراسة أولية للملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمنطقة شرق الأردن عموماً ومنطقة عمان البلقاء خصوصاً ما بين نهاية الفترة المملوكية وبداية العصر العثماني في محاولة للتعرف على الأسباب التي أدت إلى ازدهار المنطقة في الفترة المملوكية ومن ثم تراجعها في الفترة العثمانية وذلك في ضوء نتائج الحفريات الأثرية وتحليل الشواهد المعمارية التي عثر عليها في موقع أم زويتينة الأثري في منطقة الجبيهة شمال عمان.

ومعرفة هل كان هذا التراجع في الاستيطان وليداً لأحداث جرت بداية القرن السادس عشر مع سيطرة العثمانيين على المنطقة بعد انتصارهم في معركة مرج دابق عام (١٥١٦م) التي جرت أحداثها بين السلطان العثماني سليم الأول وبين السلطان المملوكي قنصوه الغوري وهل كان لهذه السيطرة العثمانية دور في تراجع الاستيطان في المنطقة أم أن هذا التراجع في الاستيطان حدث نتيجة لسلسلة من الأحداث السياسية والاقتصادية سبقت دخول العثمانيين إلى المنطقة وذلك من خلال الشواهد المعمارية التي عثر عليها أثناء أعمال التنقيب.

الموقع

تقع خربة أم زويتينة ضمن أراضي قرية أم زويتينة حوض ٣ ظهر العين، من أراضي منطقة الجبيهة إلى الشمال من وزارة التعليم العالي، وعلى بعد حوالي ٧٠٠م إلى الشمال الغربي من دوار المنهل على الطريق الجديد الذي يربط منطقة الجبيهة بمنطقة أبو نصير، وضمن الإحداثيات N 32.03484 E 35.88378 وترتفع حوالي ١٠٠٠م عن مستوى سطح البحر. ومن الملاحظ أن منطقة أم زويتينة ذات موقع متوسط بين عمان وجرش على مسافة ليست ببعيدة عن الطريق الروماني الذي كان يربط فيلادلفيا (عمان) بجرش (**الشكل ١**).

التسمية: دلالات ومعاني

اسم الموقع «أم زويتينة»، وزويتينة تصغير زيتونة وهي «شجرة مثمرة وثمرها يستخرج منه الزيت» (نصير ٢٠١٠: ٣٧١).

ظهر العين وهو اسم الحوض الذي تتبع له أراضي أم زويتينة «ما غلظ من الأرض، والعين ينبوع الماء» (نصير ٢٠١٠: ٣٧١)، أما منطقة الجبيهة فقد جاءت من الجبهة «ما بين الحاجبين إلى الناصية،

١. موقع أم زويتينة، صورة جوية.

وجبهة القوم سيدهم» (نصير ٢٠١٠: ٣٧٢).

من خلال دراسة تحليلية بسيطة لدلالة التسمية وطبيعة المنطقة الجغرافية نلاحظ أن الموقع قد اكتسب التسمية من خلال الطبيعة الجغرافية للمنطقة، حيث تنتشر فيها مصادر مياه غزيره ومتعددة، ويذكر بعض السكان المحليين أنه كان يوجد حوالي أربعة ينابيع في هذه المنطقة. ويمكن ملاحظة شجيرات الطيّون الكثيفة وهذه الشجيرات تكثر عند مصادر المياه.

كما يمكن ملاحظة الطبيعة الجبلية الوعرة والتي ترتفع حوالي ١٠٠٠م عن سطح البحر وهي ذات أمطار غزيرة تصلح لزراعة الأشجار المثمرة، ومن المعتقد أن التسمية أم زويتينة جاءت لكثافة زراعة أشجار الزيتون في المنطقة.

وهنا يمكن ملاحظة دلالة الاسم الجغرافي في تفسير الموقع وما يدل عليه من طبيعة الاستخدام.

الدراسة المعمارية الأولية لموقع أم زويتينة

من خلال أعمال التنقيب في الموقع ظهرت ثلاث طبقات أثرية تمثل ثلاث مراحل من الاستيطان تعود إلى العصر المملوكي وبداية العثماني (**الشكل ٢**)، من الأقدم إلى الأحدث:

المرحلة الأولى. بداية القرن الرابع عشر الميلادي

وهي المرحلة الأقدم من الاستيطان المملوكي، فقد كشفت أعمال التنقيبات الأثرية عن وجود مبنى مكون من غرفتين مشتركتين بجدار بسماكة حوالي (١م) يحمل سقفاً نصف برميلي ويستند على الجدار الأوسط ويغطي الغرفتين مشكلاً قبوين متجاورين (**الشكل ٣**).

حيث أن هذا النظام المعماري وهو ما يعرف بنظام الأقبية شائع بشكل كبير في منطقة الأردن في فترة القرن الرابع عشر ويمكن مشاهدة هذا النظام المعماري في ذيبان وحسبان وجلول والدير في الفحيص والسلط والبحاث.

إن النمط المعماري المتبع في البناء الذي يشكل مجموعة من البيوت ذات تقسيمات هندسية منظمة يدل على استقرار ساكني البيوت ويعكس حالة الاستقرار السياسي والأمني التي تعيشها المنطقة في تلك الفترة، ومن خلال البحث في المصادر التاريخية نلاحظ أن منطقة عمان في هذه المرحلة شهدت ازدهاراً معمارياً ونشاطاً سكانياً كثيفاً.

تعتبر الفترة المملوكية من الفترات التاريخية التي تناولها بالدراسة الكثير من المؤرخين المعاصرين للفترة المملوكية إضافة إلى المؤرخين المحدثين من كافة نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لما شهدته هذه الفترة من أحداث هامة وفرت للباحثين والمؤرخين مادة تاريخية غنية، وذلك لكثرة التفاصيل التي يمكن الحديث عنها، كالصراعات والحروب مثل الحروب الصليبية ودخول المغول إلى المنطقة وحالة عدم الاستقرار السياسي في منطقة بلاد الشام، والذي أدى إلى هجرة عدد كبير من السكان من مناطق الصراع في سوريا والعراق والساحل الفلسطيني والاستيطان في منطقة شرق الأردن عموماً ومنطقة عمان البلقاء خصوصاً، والدليل على ذلك كثرة المواقع الأثرية التي تؤرخ إلى هذه الفترة، أو إعادة استخدام بعض المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات أقدم، وخاصة مناطق الاستطلاع العسكري كمواقع العصر الحديدي الثاني حيث أن الظروف السياسية

٢. منظر عام لأعمال التنقيب في الموقع.

٣. نظام الأقبية المتبع في الفترة المملوكية.

تقريباً متشابهه بين العصرين المملوكي والحديدي الثاني. فقد دلت المسوحات الأثرية التي جرت في منطقة عمان البلقاء على اتساع الاستيطان في العصر المملوكي وتطور بعض الصناعات والحركة التجارية، وكذلك كشفت الحفريات الأثرية عن وجود مبانٍ إدارية ودينية منتشرة في المنطقة تدل على هذا النشاط واهتمام المماليك بالمنطقة، ففي حسبان عثر على قصر يعرف باسم قصر الحاكم المملوكي وحمام ومدرسة، وفي منطقة البحاث غرب عمان عثر على قصر يؤرخ إلى هذه الفترة وهذا دليل على وجود نظام اجتماعي وسياسي وإداري خلال حكم المماليك في القرن الرابع عشر في منطقة شرق الأردن.

وهنا بعض الأسباب التي أدت إلى ازدهار منطقة شرق الأردن خلال حكم المماليك :

١- العمق الجغرافي الاستراتيجي، أدى إلى بناء القلاع والتحصينات العسكرية، وتطور البريد وطرق المواصلات وطرق الحج لأن المنطقة بقيت تحت سيطرة الدولة المملوكية، ولم يتم السيطرة عليها بشكل كامل من قبل الصليبيين أو المغول، وحرصاً من الدولة المملوكية على الاستقرار السياسي في المنطقة التي أصبحت تشكل العمق الاستراتيجي، ونقطة وصل بين مصر والشام، عمدت الدولة المملوكية إلى الدخول في أحلاف عسكرية مع القوى المحلية والعشائر البدوية.

٢- الهجرات السكانية باتجاه منطقة شرق الأردن التي أصبحت ملاذاً آمناً لكافة المهاجرين والفارين من الحروب من مناطق العراق والشام وفلسطين.

٣- شكلت منطقة شرق الأردن سلة غذاء للدولة المملوكية والجيش، فتطورت بعض الصناعات مثل صناعة السكر والصابون في غور الأردن وصناعة النيل في غور الصافي وصناعة الحديد في عجلون وخربة الدير في منطقة الفحيص، والكبريت الأبيض والقار من البحر الميت وأصبحت مناطق الأردن كذلك المصدر الأكبر لتزويد الدولة المملوكية بالغلال (غوانمة ١٩٧٩).

٤- النشاط الفكري والثقافي، الذي نتج عن الاستقرار السياسي والأمني لهذه المنطقة خلال العصر المملوكي، وليس أدل على ذلك من انتشار المدارس مثل مدرسة حسبان المملوكية، والمدرسة الشافعية في الكرك، والمدرسة اليقينية في عجلون، ومدرسة صرغتمش في عمان والتي تؤرخ إلى مرحلة متأخرة من حكم الدولة المملوكية ١٣٥٦م. وكذلك انتشار بعض المنشآت المدنية ذات المنافع العامة مثل البيمارستانات (غوانمة ١٩٧٩).

المرحلة الثانية - بداية القرن الخامس عشر الميلادي

تمثلت هذه المرحلة بإعادة استخدام المباني التي تؤرخ إلى القرن الرابع عشر الميلادي، فقد دلت أعمال التنقيب في هذه المرحلة على أن هنالك تراجعاً واضحاً في الأنماط المعمارية من حيث صغر مساحات الغرف، وتغيراً في نظام التسقيف المتبع في المرحلة الأولى ليتحول من نظام الأقبية إلى نظام الأقواس وكذلك عدم استخدام المادة الرابطة، مما أدى إلى تراجع في متانة البناء، حيث من الصعوبة تحديد مبنى واحد بمنهج معماري نستطيع التعرف عليه، وعثر على الكثير من الحجارة المتساقطة التي أُعيد استخدامها لبناء غرف جديدة ولكن بشكل مختصر. ويبدو من تقسيمات الغرف أن حظائر الحيوانات أصبحت جزءاً من هذه الغرف (**الشكل ٤**) مما يدعو إلى الاعتقاد أن السكان غير آمنين على ترك الماشية خارج حدود المنزل، وهذا يشكل بداية الانهيار في النظام الأمني.

٤. حظائر الحيوانات داخل البيوت التي تعود إلى المرحلة الثانية من الاستيطان.

المرحلة الثالثة- القرن السادس عشر الميلادي (بداية الفترة العثمانية)

من خلال أعمال التنقيب في الطبقة السطحية لوحظ وجود نمطين معماريين:

- النمط الأول عبارة عن جدران طولية ليس لها أية صفة معمارية واضحة، تتكون من مدماكين وصفين من الحجارة وبأطوال مختلفة وجدت في الطبقة السطحية (top soil).
- النمط الثاني عبارة عن غرف دائرية الشكل مكونة جدرانها من حجارة كبيرة نسبياً مبنية من صف واحد ومدماك واحد من الحجارة (**الشكل ٥**).

ومن هنا كان لا بد من التوقف عند النمط المعماري الدائري وهو نمط بسيط جداً ولكن وجوده في هذه الطبقة وطريقة البناء في هذه الفترة يعتبر غريباً نوعاً ما، ويمكننا هنا إبراز مجموعة من الملاحظات على هذه المرحلة:

١- أن مثل هذه الجدران الدائرية التي لا تحوي أي مظاهر أو شواهد لوجود أبواب ومداخل يمكن الاستنتاج أن هذه الجدران لا تحمل سقفاً ثقيلاً بل وجدت لحمل سقف خفيف مثل القماش أو القش وهذا يدعم فكرة الاستيطان المؤقت قبل مرحلة هجران الموقع.

٢- من خلال دراسة هذه الأنماط المعمارية وطريقة البناء يمكن القول أن هذه الأنماط المعمارية جاءت بسبب أن الاستيطان في موقع أم زويتينة أصبح استيطاناً موسمياً أو استيطاناً مؤقتاً وعليه تكون هذه المرحلة هي الأخيرة من مراحل الاستيطان في الموقع.

٣- من خلال البحث في الفترات التراثية تبين أن مثل هذه الأنماط من البناء لا زال يستخدم إلى الآن أثناء فترات الحصاد وجمع

٥. النمط المعماري الدائري.

الثمار وأن البناء الدائري الذي يحمل السقف الخفيف يعرف إلى الآن باسم القصر وهو يستخدم من قبل مالك الأرض عند إشرافه على الحصاد.

٤- من خلال الدراسة الأولية للفخار المكتشف في الطبقات الثلاث التي تمثل ثلاث مراحل من الاستيطان في الموقع والتي أُرِّخَت جميعها في البداية إلى العصر المملوكي وذلك لأن جميع الكسر الفخارية متشابهة من حيث الزخارف والشكل، إلا أنه لوحظ وجود كسر صغيرة من الغليون العثماني، والكثير من الفخار المعروف باسم (Elephant handle) في الطبقة الأحدث وهي الطبقة السطحية وهذا يدل على أن تقنية صناعة الفخار في العصر المملوكي وبداية العصر العثماني كانت تقريباً متشابهة.

وهنا لا بد من الحديث عن دخول العثمانيين إلى منطقة بلاد الشام ثم منطقة مصر وإنهاء حكم المماليك كلياً عام ١٥١٧م بعد هزيمة آخر سلاطين المماليك طومان باي الذي أدى بدوره إلى وضع البلاد العربية تحت الحكم العثماني المباشر ولكن منطقة سوريا الجغرافية تمتعت بحكم ذاتي من خلال تعيين السلطان العثماني والياً عليها وهو الوالي جان بردي الغزالي ولكن بعد وفاة السلطان سليم الأول أعلن الغزالي انفصال بلاد الشام عن الباب العالي وهنا أرسل العثمانيون جيشاً لم يكن للغزالي قدرة على مواجهته فاستسلم وأُعدم، وبالتالي أصبحت بلاد الشام تحت إدارة الولاية العثمانية وتبعت مباشرة للباب العالي. بعد السيطرة العثمانية على بلاد الشام أُعيد تقسيم بلاد الشام إلى مناطق ثلاث تعرف باسم السناجق أو الولايات؛ وهي ولاية دمشق وحلب وطرابلس، حيث تبعت شرقي الأردن لولاية دمشق وقد حكم العثمانيون شرقي الأردن اسمياً ولم يكن لهم اهتمام إلا بقافلة الحج الشامي التي كانت تعبر الأراضي الأردنية حينها.

وهنا يمكن القول أن موقع أم زويتينة وغيرها من المواقع التي توجد في منطقة عمان الحالية وما يعرف بمنطقة البلقاء تاريخياً قد هُجرت من السكان بشكل تدريجي بناءً على ظروف وأحداث سياسية جاءت مع نهاية الفترة المملوكية وبداية العصر العثماني، أدت هذه الأحداث إلى تراجع في عدد السكان ثم إلى هجر للمنطقة بأكملها، ومن المعتقد أيضاً حدوث تغير ديموغرافي للسكان أدى إلى الاستغناء عن حياة الاستقرار والتحول إلى حياة البداوة وذلك بسبب انهيار النظام الأمني، ولجأ السكان حينها إلى التنظيم القبلي

والذي هو في الحقيقة تنظيم عسكري يساعد على توفير حماية أكبر لأفراد القبيلة وكذلك يوفر قدرة وسهولة في التنقل أي قدرة على الكر والفر. وهنا نتساءل هل كان لتلك الفترة تأثير على تكوينات المجتمع العشائري الأردني الحالي؟

كذلك التراجع الذي شهدته منطقة عمان البلقاء مع نهاية العصر المملوكي ودخول الدولة المملوكية في صراع مع الدولة العثمانية الناشئة في بداية القرن السادس عشر كان له أكبر الأثر على هجر السكان للمنطقة. هنا يجب أن نتساءل كيف حدثت هذه الهجرة؟ وإلى أين؟ وهل كان لهذه الظروف السياسية دور في سيطرة العشائر البدوية على المنطقة وتحول السكان إلى النمط غير المستقر (البداوة) للحفاظ على التكوينات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الانهيار الأمني والصراعات السياسية؟

وبالعودة إلى بعض أسماء العائلات لبعض الدارسين والمنتسبين لمدرسة حسبان المملوكية يمكن القول أن هذه الأسماء تشكل عدداً كبيراً من أسماء العشائر الأردنية الحالية وهذا يدعم الاعتقاد بالتحول السكاني للنمط البدوي وهذا لا يمنع كذلك الحديث عن دخول بعض العشائر من شمال الجزيرة العربية والاستقرار في منطقة شرق الأردن خلال الفترة العثمانية (غوانمة ١٩٧٩).

كذلك إن هجر السكان لهذه المنطقة ليس الأول حيث شهدت المنطقة هجراً في الاستيطان خلال نهاية العصر العباسي.

المراجع

البخيت، محمد عدنان

١٩٧٦ **مملكة الكرك في العهد المملوكي**. المملكة الأردنية الهاشمية.

البخيت، محمد عدنان ومرزوق، محمد يونس

١٩٩٢ **بحوث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني**. عمان، مطبعة الجامعة الأردنية

الحسو، أحمد عبدالله

٢٠٠٤ **تاريخ الكرك عبر العصور الإسلامية**. عمان، منشورات وزارة الثقافة.

غوانمة، يوسف درويش

١٩٧٩ **تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم الحضاري)**. عمان، وزارة الثقافة والشباب.

١٩٧٩ **تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم السياسي)**. عمان، وزارة الثقافة والشباب.

المومني، سعد

١٩٨٨ **القلاع الإسلامية في الأردن (الفترة الأيوبية المملوكية)**. عمان، دار البشير للنشر والتوزيع.

نصير، ركاد

٢٠١٠ **المعاني اللغوية لأسماء المدن والقرى وأحواضها في المملكة الأردنية الهاشمية**. عمان، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.

الأنباط والبترا في المصادر العربية

أحمد أسعد لاش

Abstract

Most scholars agree that there is a lack of information about Petra and the Nabataeans in the Arabic sources, particularly in the early Islamic sources where Petra is not mentioned. However, this article shows that in the period between the diminishing of the Petra dominance in the region in the 4th, 5th and 6th centuries and the earliest Islamic historians in the 8th century, Petra had no ruler worthy of mention in the major battles of the Islamic conquests in the second quarter of the 7th century. However, Nabataeans were well known in many of Arabic sources by the name Nabaṭ and Annbaṭ. The Greek name for Petra was not used but its Nabataean name, Raqmu or ar-Raqeem was well known to the Arabs as a small city carved in rock as one unit, located not so far from Palestine and close to Ayla (Aqaba). The Holy Qur'an mentions many places in the Arabic peninsula, Mesopotamia, Egypt and in the Levant including ar-Raqeem in surat al-Kahf as a place where the miracle of the seven sleepers took place.

بدايةً لابد لي أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأساتذة د. فوزي زيادين ود. غازي بيشه ود. خيرية عمرو لتفضلهم بقراءة مسودة هذا المقال وتقديم ملاحظاتهم القيمة التي استفدت منها استفادة جمّة في هذا البحث.

منذ أن قام الرحالة السويسري بيركهارت بإعادة اكتشاف البترا سنة ١٨١٢ وتقديمها للعالم، لم تتوقف أعمال البحث العلمي والتنقيب الأثري في تلك المدينة حتى يومنا هذا، فقد عمل الباحثون والمؤرخون العرب والأجانب جاهدين لسبر أغوار التاريخ والبحث بكل ما يختص بحضارة البترا والأنباط وتاريخهم وامتداد دولتهم التي غطّت مساحة كبيرة من المشرق، امتدت في أوجها من دمشق وحتى شمال الجزيرة العربية وصولاً إلى سيناء غرباً، فكانوا أسياد التجارة في العالم القديم منذ القرن الأول قبل الميلاد وحتى بدايات القرن الثاني الميلادي، وبالرغم من خضوع دولتهم للسيطرة الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد (Frösén *et al.* 2002) إلا أن حضارة البترا استمرت لقرون عديدة بعد ذلك، وقد كان للزلزال الذي ضرب المنطقة سنة ٣٦٣ للميلاد أثره المدمّر على البترا (Frösén *et al.* 2002)، وإن كانت الشواهد الأثرية المكتشفة مؤخراً أثبتت وجود استمرار للاستيطان البشري في البترا بعد هذا الزلزال استمرت حتى القرن السادس الميلادي وإن كان بصورة أقل، وقد اتخذ شكلاً مختلفاً من النشاط السكاني الذي يبدو أنه أصبح يركز أكثر على الجانب الزراعي على حساب النشاط التجاري (Amr 2011: 305-313) فشهدت تلك الفترة توسعاً سكانياً خارج حدود مدينة البترا بحثاً عن مساحات أكثر ملائمة للنشاط الزراعي.

وخلال القرنين السابقين عمل الباحثون والمؤرخون على توثيق كل ما يتعلق بالبترا والأنباط من ذكر أو إشارة في المصادر التاريخية سواءً المصادر الآشورية أو الفارسية أو اليونانية أو الرومانية، وقد نُشرت العديد من الأبحاث و الكتب في هذا المجال، وكان الإستفسار الدائم هو لماذا لم يتوفر في المصادر العربية الإسلامية المبكرة ذكر عن البترا؟ علماً أن الاكتشافات الأثرية المتأخرة «كما أشرنا سابقاً» أثبتت استمرار الوجود السكاني في البترا حتى القرن السادس الميلادي كما في كنيسة البترا (Amr 2011: 305-313)، أي في الفترة التي شهدت بها قريش أوج نشاطها التجاري بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها والتي ظهر بها ما يعرف بالإيلاف الذي أسسته قريش كنظام للتنقل الآمن للقوافل التجارية المارّة بالجزيرة العربية، وتلك ليست بالفترة الزمنية الكبيرة التي تفصلها عن البعثة النبوية الشريفة في حوالي ٦١٠ ميلادي. فنجد في المصادر الإسلامية المبكرة ذكراً لتاريخ العرب وقبائلهم وأنسابهم وآلهتهم وعباداتهم ابتداءً من اليمن في جنوب الجزيرة العربية وصولاً إلى تدمر في البادية السورية، في حين يشير الباحثون إلى غياب ذكر البترا في تلك المصادر العربية وهي الملاصقة لبلادهم في شمال الجزيرة

العربية. وهذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال هذا البحث.

وقبل الخوض في غمار هذا البحث لابد أن نشير إلى أن المصادر العربية التاريخية التي أرّخت لبدايات الفترة الإسلامية ولما سبقها من التاريخ العربي قد ابتدأت في القرن الثاني الهجري والذي يعتبر محمد بن إسحق أهم مؤرخيه والذي اختص (كغيره من المؤرخين) في توثيق السيرة النبوية الشريفة وما تلاها من أحداث إلى أن يصل للزمان الذي عاش فيه، ويعتبر ابن اسحق صاحب كتاب (سيرة رسول الله) هو شيخ المؤرخيّن العرب وأقدمهم، وإن سبقه بعض من كتب في التاريخ في القرن الأول الهجري كسليم بن قيس الهلالي وعبيد بن شربه وعلاقة بن كرشم، إلا أن ابن إسحق يعتبر المرجع الرئيسي لمن عاصره ولمن جاء بعده من المؤرخين، وهو الذي ولد سنة ٨٥ للهجرة /٧٠٣م وتوفي سنة ١٥١ للهجرة /٧٦٨م، إلا أن كتابه هذا قد فُقد ولم يصلنا منه إلا ما هذّبه ولخّصه عبدالملك بن هشام والمعروف بابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هجري/٨٣٣م صاحب ما يعرف بسيرة ابن هشام، وباستعراض بسيط لأبرز المؤرخين الأوائل للتاريخ العربي الإسلامي نذكر:

هشام بن محمد الكلبي والمعروف بالكلبي والمولود سنة ١١٠هجري /٧٢٨م والمتوفى سنة ٢٠٤ هجري /٨١٩م، كذلك محمد بن عمر الواقدي المولود سنة١٣٠ هجري /٧٤٧م والمتوفى سنة ٢٠٧ هجري /٨٢٣م، ومحمد بن على المدائني المولود سنة ١٣٥ هجري /٧٥٢م والمتوفى سنة ٢٢٥ هجري /٨٤٠م، ومحمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى والمتوفى سنة ٢٣٠ هجري /٨٤٥م، وخليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠ هجري /٨٥٤م ، واحمد بن اسحق اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هجري /٨٩٧م واحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٩٧هجري /٩١٠م، ومحمد بن جرير الطبري المؤرّخ الأشهر في التاريخ العربي الإسلامي والمولود سنة ٢٢٤هجري /٨٣٩م والمتوفى سنة ٣١٠هجري /٩٢٣م.

هؤلاء بشكل موجز أهم من كتب ووثق التاريخ العربي الإسلامي في بداياته، ومن جاء منهم لاحقاً أخذ ممن سبقه وأضاف عليه ولكل منهم طريقته في تحرّي الدقة وتحقيق الرواية والسند حسب المعايير الخاصة به والتي كانت تختلف من شخص لآخر، فكان لتوثيق ما ورد من أخبار السيرة النبوية النصيب الأكبر من كتابات أوائل المؤرخين، حيث كان علم نقل الحديث في بداياته ومحاولة تتبع سند الرواية التي تخص السيرة النبوية قدر الإمكان وإن كانت الكثير من الأسانيد قد تم مراجعتها وتدقيقها في وقت لاحق عندما توسع علم الحديث وعلم الجرح والتعديل، أما فيما يختص بالتاريخ العربي قبل الإسلام فقد تناقلته الرواية الشفهية، والتي أخذت الطابع القصصي في بعض الأحيان وشابها بعض من عدم الدقة التي قد تصل إلى مرحلة الأساطير أحياناً أخرى (الحوت ١٩٥٥).

وبمتابعة بسيطة لأهم التواريخ الخاصة بالسيرة النبوية الشريفة نلاحظ أن مولد الرسول صلى الله عليه وسلّم كان بمكة المكرّمة في حدود سنة ٥٧١م وكانت بعثته في حدود سنة ٦١٠م، وهجرته سنة ٦٢٢م، ووفاته صلى الله عليه وسلم سنة ٦٣٢م، في حين أن أهم وأوائل الكتابات التاريخية التي تناولت التاريخ العربي الإسلامي قد ابتدأت كما أشرنا سابقاً في القرن الأول والثاني للهجرة أي بفترة قريبة نوعاً ما من الأحداث الرئيسية في التاريخ الإسلامي وهي بعثة الرسول الكريم وهجرته ووفاته ومرحلة الفتوحات الإسلامية المبكرة.

وبالعودة إلى المحور الرئيسي في بحثنا هذا وهو البترا والأنباط فنجد أن هذه الدولة العربية التي بلغت أوجها في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي قد مرّت كما هو حال الكثير من الدول بمرحلة النشوء ثم القوّة والتمدد ثم الضعف والإضمحلال فالتلاشي، فكان خضوعها للسيطرة الرومانية سنة ١٠٦م من الأحداث الهامة على هذه الدولة العربية، إضافة إلى بروز دولة تدمر كقوة تجارية في المنطقة على حساب النفوذ النبطي، إلا أن الزلزال الذي ضرب المنطقة سنة ٣٦٣م كان له الأثر الأكبر فيما يبدو على حضارة البترا ليس فقط بتدمير بعض المنشآت المعمارية بل بتأثيره على النظام المائي الذي اشتهرت به البترا وكان اعتمادها عليه في تلك الصحراء القاحلة وتدميره للقنوات المائية في أجزاء واسعة من المدينة، إلا أن الدلائل الأثرية تشير إلى استمرار الوجود السكاني في المدينة حتى منتصف القرن السادس الميلادي ولو بصورة أقل إلا أن ما تبقى من الحضارة النبطية في البترا لم يستطع الصمود أمام ضربة زلزالية أخرى ضربت المنطقة سنة ٥٥١م (Niemi *et al.* 2009) والتي يبدو أنها قد أنهت ما تبقى من وجود مدني في مدينة البترا. وعند العودة إلى المصادر العربية الإسلامية من كتب السّير والمغازي والتي رصدت الأحداث الهامة في التاريخ الإسلامي وخاصةً ذكر المواقع والأماكن الجغرافية خلال الغزوات لا نجد ذكراً لمدينة البترا، فهذا هو الجيش الإسلامي يتحرك في السنة الثامنة للهجرة/٦٢٩م في غزوة مؤتة منطلقاً من المدينة المنورة نحو بلاد مؤاب متوقفاً في معان التي لا تبعد أكثر من ٤٠كم عن البترا دون أن يكون هنالك أي ذكر لمدينة البترا في كل كتب السيرة التي تناولت تلك الغزوة، وفي السنة التاسعة للهجرة/٦٣٠م ينطلق الرسول صلى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك ويتوقف هو وأصحابه في منطقة الحجر (الطبري ٣: ١٠٥) قبل أن يبلغ تبوك «وهي المدينة النبطية المعروفة بمدائن صالح» ثم يكمل الجيش الإسلامي طريقه نحو تبوك تاركاً تلك البقعة الخالية من السكان، ولدى وصوله تبوك في شمال الجزيرة العربية يقيم بها بضع عشرة ليلة، حيث جاء يحنّة بن رؤبة صاحب آيلة إلى رسول الله وصالحه وأعطاه الجزية وكذلك صالح أهل جرباء وأذرح وأعطوا الجزية وكتب رسول الله لكلٍ كتاب، كما صالحه أكيدر دومة الجندل على الجزية (الطبري ٣: ١٠٩) وبالرغم من وقوع هذه الأحداث ضمن مناطق جغرافية قريبة من البترا إلا أن كل كتّاب التاريخ الذين تحدثوا عن هذه الغزوة لم يوردوا بها أي ذكر للبترا، مما يرجّح فرضية أن البترا في تلك الفترة كانت خالية أو شبه خالية من التواجد السكاني بصفته المدنية على الأقل. أما بالنسبة للفتوحات الإسلامية التي أعقبت وفاة الرسول الكريم في السنة ١١ للهجرة/٦٣٢م والتي انطلقت في بدايتها من المدينة المنورة باتجاه العراق وبلاد الشام، والتي أسهبت كتب السير في الحديث عنها من حيث التواريخ وقادة الجيوش والفِرَق وتحركاتها والأماكن التي مرّت

بها، وبالأخذ بعين الإعتبار أن شرق الأردن كان مسرحاً لأهم المعارك في الفتوحات الإسلامية وقد ذُكرت الكثير من المناطق به إلا أن البترا لا يوجد لها ذكر في أيٍّ من تلك الأحداث.

فإذا كانت تلك المصادر قد صمتت عن ذكر البترا، فهل صمتت أيضاً عن ذكر الأنباط؟

لا شك أن الأنباط هم من القبائل العربية (زيدان ١٩٢٢) ووجودهم في شمال الجزيرة العربية يعني إشتراكهم مع سكان شبه الجزيرة العربية في الثقافة واللغة والديانة، فالإله الرئيسي للأنباط (ذو الشرى) كان من الآلهة ذات المكانة في شبه الجزيرة العربية وقد صنفه سليم الحوت تحت باب آلهة الأماكن (الحوت ١٩٥٥)، ويذكر هشام الكلبي أنه كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد صنمٌ يقال له ذو الشرى وله يقول أحد الغطاريف:

إذن لحللنا حول ما دون ذي الشرى وشجَّ العدى منا خميس عرمرم (الكلبي ١٩٢٤). وقد ذكرت الآلهة المشهورة في شبه الجزيرة العربية مثل مناة واللات وهبل في نقوش مدائن صالح النبطية (جوسن وسفنياك ١٩٩٧)، كما ورد اسم (اللات) بكثرة في نقوش وادي رم (زيادين وفارس ١٩٩٨) وفي نقوش البترا ظهرت اللات والعزّى بأسماء مختلفة (Starcky *et al.* 1976/68). فبالرغم من القرب الجغرافي والإشتراك الثقافي فإنه من الغريب أن يغيب ذكر البترا وملوك الأنباط في المصادر العربية المبكرة، في حين نجد بها ذكراً يكاد يكون تفصيلياً لتدمر وملوكها مثل أذينة ووهب اللات والملكة زنّوبيا التي عرفت بالمصادر العربية بإسم (الزبّاء) وحكمت مملكة تدمر خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، فكيف لا تُغفل المصادر العربية الحديث عن تاريخ تلك الدولة التدمرية التي تقع على ضفاف الفرات والتي تقرب الفترة الزمنية الفاصلة بينها وبين أوائل المؤرخين العرب من الخمسة قرون، في حين نجدها صامتة عن البترا وتاريخها! قد يكون جواب ذلك هو ما نقله الطبري عن هشام الكلبي «أنه استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من بيّع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها» (الطبري ١ : ٦٢٨)، فمعظم ما تناقلته العرب عن التاريخ وأحداثه قبل الإسلام يدخل تحت بند التاريخ الشفهي غير المكتوب والذي قد يخالطه عدم الدقة في بعض الأمور والتهويل في بعضها الآخر، وقد يسقط ذكر أقوام بانتهاء كياناتهم، وهذا ما قد يكون حدث بالنسبة لذكر البترا والأنباط، خاصة إذا أخذنا بعين الإعتبار أن بداية التوثيق التاريخي في الحضارة الإسلامية العربية قد بدأت في القرن الثامن الميلادي أي بعد بداية أفول نجم دولة الأنباط وما لحق ذلك من تدهور لمكانة دولة الأنباط عقب زلزال ٣٦٣م، وما قد تكون شهدته المدينة من شبه خلو للتواجد المدني عقب زلزال ٥٥١م، فإننا نتحدث عن فجوة زمنية تمتد ما يقرب من القرنين على بداية التوثيق التاريخي وآخر مراحل التواجد النبطي المدني، أما بالنسبة لتدمر فيبدو أنها قد شهدت نوعاً من الإستمرار في التواجد السكاني – ولو ليس بالشكل الذي كانت عليه – حتى الفترات الإسلامية المبكرة. وبما أن العرب قد ورثوا الكثير من مصادر التاريخ الفارسي، ولعل احتضان الدولة العربية الإسلامية للكثير من العناصر الفارسية في جسمها ونشاط أعمال الترجمة من الفارسية إلى العربية قد أتاح الفرصة للتعرف على ما ورد في التاريخ الفارسي المكتوب والذي كانت أخبار تدمر جزء منه بشكل أو بآخر وإن خالطها شيء من عدم الدقة، وهذا ما قد لا يكون قد توفّر عند الإشارة إلى البترا أو الأنباط، ولكن ألا يوجد ذكر للأنباط في المصادر العربية ؟

لقد تناول الكثير من الباحثين البحث في مسمى (النبط) وتاريخه وجذوره وما يعرف بنبط العراق أو نبط السواد ونبط الشام (زيدان ١٩٢٢) وهذا موضوع لا يتسع مجال بحثنا في الخوض فيه، أما لفظ (النبط) في اللغة العربية فيورده ابن منظور في كتابه لسان العرب انه «الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت» «والنبط إنما سمُّو نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين»، ومما لاشك فيه أن النظام المائي الذي استخدمه الأنباط هو من السمات المميزة في حضارتهم، كما يورد ابن منظور قولاً لعمر بن الخطاب «تمعددوا ولا تستنبطوا أي تشبهوا بمعد ولا تشبّهوا بالنبط» (ابن منظور ٢٠٠٣)، أما جورجي زيدان فيورد ما ذكره الأصفهاني أن «الأرمانيون نبط الشام والأردوانيون نبط العراق» (زيدان ١٩٢٢)، في حين يصف المقريزي النبط بأنهم «بقايا الصابئة» (المقريزي ١٠٥ :١)، أما محمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى والمتوفى سنة ٢٣٠ للهجرة/٨٤٥م فيذكر في الجزء الأول من كتابه الطبقات الكبرى، صفحة ٣١ أن هاشم والد جد الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم التقى بزوجته سلمى بنت عمرو من بني النجار في سوق النبط وهو في طريقه إلى المدينة فتزوجها وأنجب منها ابنه شيبة والمعروف بعبد المطّلب، وهو جد الرسول الكريم الذي كفل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو طفل بعد وفاة والده عبدالله. وإذا حاولنا تتبع تأريخ هذه الحادثة فإننا نكون أقرب للعقد الأول من القرن السادس الميلادي، أي الفترة التي كانت ما تزال تشهد تواجداً نبطياً في البترا حسب ما دلّت عليه مكتشفات كنيسة البترا الأثرية (Frösén *et al.* 2002)، فهل كان الأنباط في تلك الفترة ما زالوا يمارسون أصناف التجارة ليكون لهم سوق بالقرب من المدينة يعرف بسوق النبط.

ولكن بالإضافة إلى كلمة «النبط» هل وردت كلمة «الأنباط» بالشكل الصريح في المصادر التاريخية العربية؟ يذكر ابن خلّكان في الجزء السادس من كتابه» وفيات الأعيان»، في الصفحة رقم ٣٠٤ ما يرويه على لسان الحسن البصري عندما عابَ خروج يزيد بن المهلب على بني أمية فاتهمه الناس أنه يناصر بني أمية فكان أن نفى ذلك وأنه لا يمكن أن يناصر بني أمية على حد قوله وهم الذين استحلوا المدينة المنورة «حتى أن الأقباط والأنباط ليدخلوا على نساء قريش فينزعون خمورهن عن رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن وسيوفهم على عواتقهم»، وهذه الرواية ذكرها الطبري أيضاً على لسان الحسن البصري في الجزء السادس من تاريخه بما نصّه «أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلون أهلها ثلاثة أيام وثلاث ليالي، قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم يدخلوا على نساء قريش فينزعون خمورهن.....» (الطبري ١٩٦١: ٥٨٨).